فرح أنطون

«فليحذر العالم من يوم يصير فيه الضعفاء أقوياء، والأقوياء ضعفاء»
فرح أنطون

نحن إزاء مناضل يسارى من نوع خاص.

تقلب فى مهن عديدة. بدأ حياته العملية كتاجر أخشاب. ثم عمل مدرساً. ثم ترك بلدته (طرابلس – لبنان) وأتى إلى مصر ليمارس مهنة الكتابة رافعاً رايات اليسار والاستنارة لأن مصر عنده «هى المركز الأوسط لجميع العالم العربى ومنه تنتشر الخدمة الوطنية الأدبية انتشار الأشعة إلى جميع الجهات». واشتغل فرح بالكتابة فى الصحف. كتب فى العديد منها فى وقت واحد متخذاً أسماء مستعارة. وكان يكتب باستمرار فى جريدة «الأهرام» متخذا اسم «سلامة»، وفى عام ١٨٩٩ بدأ مشروعه الرائع فأصدر مجلة «الجامعة» التى حملت لجيل هذا الزمان فكره الموسوعى والعقلانى والليبرالى واليسارى.

وعندما انتقلت «الأهرام» من الإسكندرية إلى القاهرة استمرت طبعة الإسكندرية مستقلة باسم «صدى الأهرام» وتولى فرح رئاسة تحريرها، وكانت المعجزة؛ إذ تفوق الصدى على الصوت الأصلى. فغضب بشارة تقلا صاحب الاثنتين. وطرده.

ثم شارك أخته «روز» فى إصدار مجلة «السيدات» التى حملت رياح التغيير والاستنارة وتحرير المرأة. ثم سافر إلى أمريكا عام ١٩٠٧ ومارس نشاطاً صحفياً واسعاً وسط الجالية العربية هناك. وحيث انفتح عقله على الفكر الماركسى والدعوة إلى الاشتراكية، وتتلمذ على كتابات أوجين دبس وهنرى جورج. لكنه، ومن بعيد، شعر بمصر وهى تتململ استعداداً للنهوض فعاد سريعا ليسهم فى نهوضها ـ وعاد إلى الكتابة. وكانت مقالاته هذه المرة ساخنة إلى درجة الالتهاب، غاضبة إلى درجة السخط بحيث أصبح المشاغب الأول فى حقل الصحافة وما من جريدة تفسح صفحاتها لكتابته إلا وتغلق. عديد من الصحف

أغلقت بسبب مقالاته. ويروى نقولا حداد - صديقه وصهره - أن أحد المقربين من الاحتلال قال له «إن فرح أفندى متهور فى كتاباته وأخشى أن يؤدى تهوره إلى نفيه من البلاد. فحبذا لو نصحته أن يعتدل»، ثم ما لبث هذا المقرب من الاحتلال أن استدعى فرح وأنذره بأن يكف عن كتابة مثل هذه المقالات فرد عليه فرح: «أتأسف أن أقول لك إننى لست أحترف مهنة القلم لكى أسترزق منها، بل أحترفها لأكتب هذا الذى لا يعجبك، فإذا لم يؤذن لى أن أكتب ما يوحى إلى به ضميرى فخير لى أن أمتهن مهنة أخرى»، فيرد الرجل ببرود: «نعم خير لك أن تبحث عن مهنة أخرى».

لكن فرح يواصل كتاباته فأغلقت جريدة بسبب أول مقال كتبه بعد هذه المقابلة، ثم أغلقت جريدة ثانية ثم ثالثة.

وبعدها أصدر جريدة «الأهالى» فأغلقت لمدة ستة أشهر، فأصدر جريدة «المحروسة» فأغلقت هى الأخرى. وكانت فترة الستة أشهر توشك على الانتهاء.. لتعود صحيفة «الأهالى». فزاره نقولا حداد وجرى بينهما الحوار التالى:

- **نقولا**: من الأفضل أن تخفف الهجوم حتى تسلم «الأهالى» من عقاب الإقفال النهائى.
- **فرح**: معنى هذا أن نرمى سلاحنا ونرفع العلم الأبيض ونسلم أنفسنا للخصوم.
- **نقولا**: ولكن ماذا تفعلون إذا عادت الحكومة وأقفلت «الأهالى» نهائيا؟
- **فرح**: نحن محاربون، وإقفال «الأهالى» أفضل جدا من أن تحيد شعرة عن خطها. والهلاك فى الحرب خير من التسليم.
- **نقولا**: لكن ماذا تفعلون وهى مقفلة؟
- **فرح**: نكتب كتبا وكراريس. ونؤلف روايات تمثيلية عن سكان جزيرة واق الواق. والشعب ذكى يفهم.

ويمكن القول بأن فرح كان ماركسيا من نوع خاص، تتلمذ على كتابات روسو، وفولتير، ورينان، وكانط، وابن رشد، والغزالى وابن طفيل وعمر الخيام. وكانت كتاباته عن الماركسية مغلفة دوما بمعارف ومواقف لا توحى بذلك.

ففى ١٣ نوفمبر ١٨٩٩ حدث كسوف فى الشمس أثار هواجس الناس بقرب نهاية العالم، فكتب فى الجامعة (١٨٩٩/١١/١٥) مقالا بعنوان «متى ينتهى هذا العالم؟» ثم يجيب: «ينتهى حين يعدل الحكام وحين يعامل ولاة الأمور شعوبهم كما يعاملون أولادهم،

ينتهى حين تنفق الحكومات ما تدفعه الشعوب إليها من ضرائب ورسوم على الأمور الضرورية من تعليم الشعوب وإنقاذها من آفة الجهل، لا على البذخ. يومئذ ينتهى عالم الجهل والشقاء والفقر والرذائل والأوهام، ويقوم عالم آخر تنيره شمس الفضيلة الباهرة والأدب الغض والعلم الصحيح، وإلا فسواء موتنا وحياتنا فى العالم الحاضر، وسواء خرابه أو عماره إذا بقى على ما هو عليه».

وكان فرح يدرك صعوبة المرتقى نحو الاشتراكية ولهذا اضطر إلى القول: «ليست كل نظرية جميلة يتقبلها الناس. ولهذا فقبل أن نحبب الجمهور فى المبادئ الديمقراطية والاشتراكية يجب دفعه للاستعداد للجهاد فى مقاومة الاستبداد والاستعباد بالقوة».

* * *

«لا تقل هاتوا زعيما صادقا، بل قل هاتوا شعبا راقيا. وأنا كفيل بزعيم حر من بين الحقول وأكواخ الفقراء».

فرح أنطون

ومضى فرح أنطون ليتحسس طريقه فى كيفية طرح الفكر الماركسى على المصريين فى هذا الزمان المبكر، إذ يقول عنه مارون عبود: «لقد كان فرح أنطون أول من لقن العرب أفكار كارل ماركس» (جدد وقدماء ـ ص٧).

أما عباس العقاد فقد انبهر بكتابته وقال له: «إنك يا فرح أفندى طليعة مبكرة من طلائع هذه النهضة العامة، وسيعرف لك المستقبل من عملك ما لم يعرفه الحاضر، وستكون حين يفترق الطريقان خيراً مما كنت فى هذا الملتقى المضطرب».

أما سلامة موسى فقد قال: «إن تأثير كتاباته فى نفسى كان شبيه الأثر بذلك الذى يتركه دين جديد فى قلب حديث الإيمان»، ويقول لطفى جمعة: «إن هذه الكلمات جديرة بأن تكتب بماء الذهب».

ويواصل فرح معركة نشر الفكر الماركسى عبر قنوات عديدة منها المسرحيات، ألم يقل لنقولا حداد: «نكتب روايات عن واق الواق والشعب ذكى يفهم». وعندما يصدر مسرحية «أورشليم الجديدة» هاجمته صحف عديدة بأنه يبشر بالشيوعية، فرد عليها قائلاً: «لا بد من محاربة ذلك الفساد الاجتماعى والسياسى المبنى على سلطان المال الذى يسمم دم الأمة لأنه يقتل فيها العدالة، ويجعل القانون ألعوبة فى يد المال يميل معه حيث مال،

ويحصر السلطة والمنافع والأرزاق فى أفراد قلائل، ويكون باقى الأمة أجراء مسخرين يتعبون ويكدون ويكدحون وغيرهم يتمتع بثمرة تعبهم دون أن يهتم أو يغتم لحال الأمة والعملة (العمال) الذى يجمع ثروته منهم».

ثم يقول: «إن هدم الفساد الاجتماعى مقدم على هدم الفساد السياسى، فمع انتهاء الفساد الاجتماعى يستحيل وجود فساد سياسى، وستذهب دولة الملكية الفردية ودولة الاحتكار المالى، وتقوم دولة التعاون الاجتماعى والتضامن البشرى بين طبقات الأمة» (الجامعة ـ يناير ١٩٠٣)، وفى ذات العام يصدر فرح روايته الصاعقة «الدين والعلم والمال» وهو يقدمها قائلاً: «سميناها رواية على سبيل التساهل لأنها عبارة عن بحث فسفى اجتماعى فى علاقة العلم والمال والدين، هو ما يسمونه فى أوروبا بالمسألة الاجتماعية».

والحقيقة أن هذه الرواية تقدم وبصورة مبسطة وصريحة النظرية الماركسية التى احتار الكثيرون فى شرح مضمونها للبسطاء. فنقرأ فيها حوارات مثل: «نهض زعيم العمال معلنا شكوى العمال من طمع أرباب الأعمال، فالعمال يتعبون ويئنون وأرباب الأموال يتمتعون ويتلذذون، فمن العدل أن يشارك هؤلاء أولئك فى كل شىء». يرد عليه ممثل رجال المال قائلا: «إن شكوى أرباب الأعمال لم تكن من العمال، فنحن نحب عمالنا كما نحب أولادنا، وإنما شكوانا من بعض الطامعين الذين يثيرون خواطرهم علينا، ويحرضون طبقتهم على طبقتنا. فلتفصل الحكومة العمال عن هؤلاء المحرضين فيستتب السلام بين الجميع»، وهنا ينهض واحد من فريق رجال العلم ويقول: «إذا صح أنه متى رفعت يد الذين يسمونهم محرضين بين العمال فقد يزول نصف شكوى أهل المال، وربما يبقى عليهم أن يبحثوا هل يترافق هذا السلام الذى سيحدث مع هناء العمال وراحتهم، أم يبقى سلامهم موتا أبديا وماديا كسلام أهل القبور؟».

وفى جلسة أخرى يدور حوار ساخن فيقف ممثل العمال مطالبا بمشاركة العمال فى الأرباح متوعدا أصحاب المصانع وقائلا: «إذا كان فى حزبكم فلاسفة كبار وعلماء أعلام، فإن فى حزبنا من هو فوق العلماء والفلاسفة إنه كارل ماركس»، وإذ يطالب ممثل رجال العلم بحل وسط يتمثل فى زيادة الأجور وفرض ضريبة على الإيراد يهتف ممثل العمال: «أيها العمال إنهم يخدعونكم فلا تصدقوهم ولا ترضوا بمجرد زيادة الأجور، بل طالبوا بمشاركة أصحاب المصانع فى ملكيتهم، فإذا رفضوا ذلك فاستولوا على المعامل والمصانع

والمزارع والمتاجر لأنها ملك لكم بحكم الطبع، وهو خير من حكم الشرع، فاستولوا عليها ولا تخافوا فإن الاعتدال لا يحصل لنا حقا ضائعا، واعتمادنا على أنفسنا هو طريقنا. وهنا يتعالى هتاف العمال: تحيا الاشتراكية. الاشتراكية أو الموت».

وفرح يقول الحق ولا يخشى أحدا، فعندما أعلن الزعيم المهيب سعد زغلول استعداده للتفاوض مع الإنجليز على أساس مشروع ملنر يصرخ فرح شعراً:

إلى أين تمضى بالأمانة يا سعد
وتجنى على شعب عليك له العهد
رويدك لا تعبث بآمال أمة
شغوف بالاستقلال يهتاجها المجد
فيا سعد حاذر أن تزل طريقها
وإلا فلا سعد هناك ولا وفد

ويتمادى فرح كعادته فيدعو على صفحات «الأهالى» إلى سحب التوكيلات من سعد (١٠ ـ ١١ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ يناير ١٩٢٧)، ويتحالف فرح مع جمعية الطلبة المصريين بباريس، وكانت جمعية يسارية.. ويغضب سعد زغلول متهما إياهم بالبلشفية. لكن سعد لا يلبث أن يعلن «إننى لا أقبل أى مفاوضة على أساس مشروع ملنر إلا بعد تعديله بالتحفظات». فيعود فرح إلى تأييده سعد.

ويرحل فرح أنطون سريعاً وهو لم يزل فى التاسعة والأربعين ليرثيه عشرات المثقفين والشعراء والكتاب ورجال الدين.. ومنهم مصطفى صادق الرافعى:

على فرح فليحزن الشرق كله
فما هو فرد إنما هو جيل
لقد كان طودا للحقيقة راسخا
تميل رواسيها وليس يميل
فتى كان صدقا فى فم الدهر بيننا
وجل البرايا كذبة وفضول
فتى كان لا يرضى الحياة حقيرة
فعاش ليفنى والجليل جليل